# نعم ، يستطيع التابع أن يتكلّم

## الاصولية اللغوية ردّ سيّئ على الكولونيالية الثقافية


فلاح حكمت إسحق*

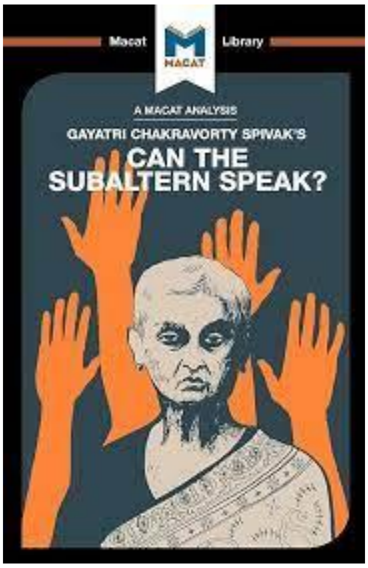

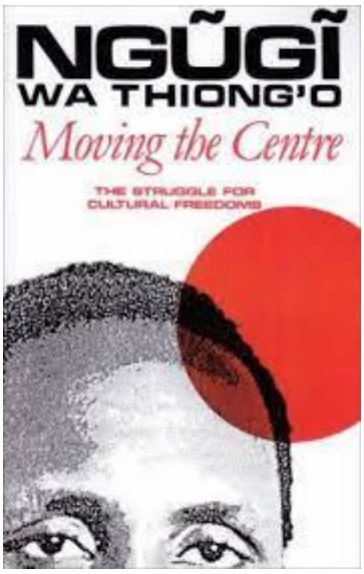


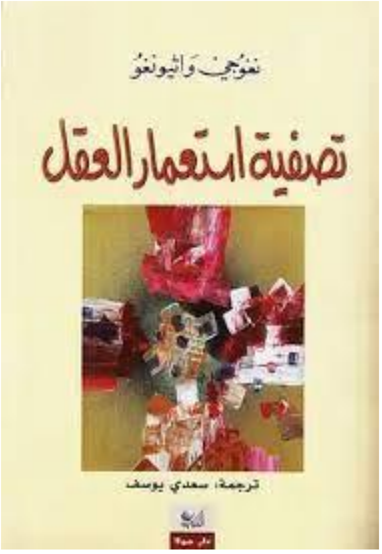


مياهٌ كثيرة جرت تحت جسور الثقافة العالمية ، وتبدّلت خرائط السياسات الدولية ، وتغيّرت خصائص العلاقات الحاكمة بين ( التابعين ) القدماء و( السادة ) الكولونياليين التقليديين منذ أن ألقت ( **غياتري سبيفاك** ) محاضرتها الشهيرة عام 1983 بعنوان ( **هل يستطيع التابع أن يتكلّم ؟**[1] ) – تلك المحاضرة التي جعلت سبيفاك سبّاقة في تأسيس مبحث **دراسات التابع SubAltern Studies** ( وهو أحد أهمّ فروع دراسات مابعد الكولونيالية ) فضلاً عن أنها رسّخت موقع سبيفاك باعتبارها أحد الآباء المؤسّسين لحقل الدراسات مابعد الكولونيالية .

الجواب على تساؤل سبيفاك هو – ببساطة مثيرة - : نعم ، يستطيع التابع أن يتكلّم ، كما يشاء وبالكيفية التي تعظّمُ مناسيب

منفعته الرمزية ( الاعتبارية ) والمادية ، بل صار كثيرون يخشون من نشوء تيّار ضدّي معاكس للسطوة الكولونيالية السابقة ، يتجوهر في أصولية لغوية يبدو معها المنافحون عنها ( الاصولية اللغوية ) وكأنّهم يريدون الثأر من سنوات التغوّل الكولونيالي .

يبدو من المفيد أوّلاً أن نفهم سبب إنكسار السطوة الكولونيالية التقليدية وانقلاب حركتها من اتجاه واحدي إلى حركة دينامية متبادلة . يمكن تشخيص المؤثرات التالية :

1 . **المؤثر العولمي :** نميلُ تلقائياً إلى المواضعة التي تقول أنّ العولمة صناعة كولونيالية مستحدثة قُصِد منها تمكين ( القوي ) إقتصادياً وثقافياً من نشر منتجاته السلعية والثقافية من غير حواجز معيقة . هذا صحيح إلى حدّ بعيد ؛ لكن من الخطل معاينة الوقائع بعين واحدة وبرؤية واحدة .

في عالم بدايات السطوة الكولونيالية التقليدية كان الاسبان والانكليز – مثلاً – يبدون أقواماً قادمة من كواكب بعيدة بالنسبة لقبائل تعيش في جزر نائية . عندما رأى سكّان هذه الجزر سفائن تتحرّك بمحرّكات بخارية عملاقة ظنّوا في الغزاة الكولونياليين قدرة متفوّقة ليست لهم وسيلة للتكافؤ معها بأي قدر ضئيل . أظنُّ أنّ سكّان الجزر أو البلاد التي شهدت طلائع الكولونياليين تساءلوا في

سرّهم وعلانية كذلك : **إذا كان هؤلاء الكولونياليون قد عرضوا لنا بعض أسرار تفوّقم العلمي والتقني فكيف سيكون نمط عيشهم في بلادهم ؟ لابدّ أن يكون شيئاً نعجز عن ملامسة أطيافه البعيدة .** هذا هو أصل الحسّ ( التابعي ) وهو ذو منشأ ذهني وسايكولوجي معاً . كثيرون منّا في العصور الاحدث تصوّروا أنّ ( لندن ) أو ( باريس ) أو سواها من الحواضر الميتروبوليتانية الكولونيالية هي أقرب إلى مانقرؤه في ( ألف ليلة وليلة ) ، ثمّ عندما رأوا تلك الحواضر أظنّ أنّ خيبة تلبّستهم بسبب تضخيمهم المرضي لصورة تلك الحواضر . **كلّ ماليس لنا سبيلٌ إلى رؤيته نميل لرسم صورة مضخّمة ومشوّهة عنه ، ثمّ عندما نراه تنكسر تلك الصورة وتعود لحجمها الطبيعي من غير تضخيمات ذهنية .** من المؤكّد أنّ حالات فردية لإعادة ترسيم خريطة العالم الكولونيالي في الذهن ( التابعي ) حصلت قبل العولمة المتغوّلة ، ثمّ عندما تعاظم المدّ في التبادل الثقافي والاقتصادي نهشّمت الصورة الذهنية الاسطورية لهذا الغرب المتعملق ، وفي الوقت ذاته راح الكثيرون يتساءلون : لماذا كنّا نكسّرُ مجاذيفنا ونقتل كلّ بادرات التطوّر الممكنة في بلداننا لصالح تعظيم صورة مشوّهة ؟ ليست بلداننا بذلك القدر من السوء الذي رسمناه في مخيّلاتنا المنحازة لصورة الكولونيالي المتفوّق في كل شيء ، أو على الاقل

حتى لو كانت بلداننا تستوطنُ الكثير من مظاهر السوء فليس من الانصاف تركها تغرق في مستنقعات التخلف والتردّي . يجب عمل شيء إيجابي لها بدل التغنّي بأمجاد الآخرين .

**2 . مؤثّر العلم والتقنية :** السطوة الكولونيالية لم تأت حباً في السيطرة المطلقة لذاتها بل كانت بدافع الحصول على الثروات الطبيعية ( سكّر ، قهوة ، كاكاو ، مطّاط ، شاي ،،،، ) ؛ أي بمعنى آخر كانت بحثاً عن تعظيم مصادر الثروة ( المال ) . **إحدى مآثر العلم والتقنية أنّهما سعيا بكيفية حثيثة لإبدال شكل الثروة من مصادر طبيعية إلى مصادر غير طبيعية** . لو دقّقنا في عالمنا الراهن لرأينا أنّ الحال السائد فيه يمكن وصفه بسيطرة **إقطاعية رقمية Digital Feudalism** تتجلّى في ستّ أو سبع شركات عملاقة لاعلاقة لها بأي مصدر طبيعي للثروة ، أو إذا شئنا الوضوح والدقّة فإنّ ( البيانات والمعلومات ) هي رأسمال هذه الشركات .

هذه التحوّل الراديكالي في نمط تشكيل الثروة فتح آفاقاً ثورية أمام ( التابعين ) القدماء ليكونوا ( سادة ) . مِثالُ الهند هو المثال الأهم . لم تصنع الهند سيارة على طراز ( مارسيدس ) أو ( رولز رويس ) ولا حتى ( فولكس فاغن ) ؛ ومع هذا صارت الاقتصاد العالمي الثالث أو الرابع بين إقتصادات العالم ، وهذا كله بسبب

الدفع الذي وفّرته شركاتها المتقدمة في قطاع التقنيات الرقمية . كلّ ماتحتاجه ثورةٌ حقيقيةٌ في التقنيات الرقمية هو عقل شغوف وحاسوب ورغبة في العمل الجاد والمنضبط . **عندما تصبح ثرياً لن تكون تابعاً سواء على المستوى الشخصي أو على مستوى الامم . مافعله غيرُكَ يمكنك أن تفعله وتتفوق عليه . هذا بعضُ ماتعِدُ به الثورات التقنية الجديدة . وفي الوقت ذاته إذا غادرت هذه الفرصة فستنزلق إلى قعر عميق من الفقر والتخلف وستكون أسوأ من ( تابع ) العقود السابقة . لامجال للخيارات الوسطى أو المُهادِنة . الفرز الاستقطابي سيكون عظيماً وموجعاً وقد لايستطيع المتخلفون عن الركب مواجهة تبعاته القاتلة .**

**3 . مؤثّر الروح المتعطّشة للتفوّق والانجاز :** ربما ( **توماس فريدمان )** هو أفضل من يعبّرُ عن هذه الفكرة . كتب فريدمان في أحد كتبه قبل عقدين ( عندما لم يكن إبني الصغير يشرب حليبه الصباحي كنتُ أقول له : إشرب حليبك وإلّا فإنّ الآسيويين سيشربونه بدلاً عنك !! ) . قبل بضع سنوات كتب ( فريدمان ) ذاته : ( عندما أرى إبني المراهق متلكئاً في واجباته المدرسية أقول له : إعمل جيداً وإلا فإنّ الآسيويين سيستحوذون على وظيفتك !! ) . بالامس كان الحليب مصدر التنازع ، واليوم صارت الوظيفة ؛ فماالذي سيحصل غداً ؟

يرى الغربيون في كثير من الظروف المنعّمة التي يعيشونها وكأنها إمتيازات طبيعية لهم ؛ في حين يرى ( التابعون ) القدماء في كثير من هذه الظروف طموحات ذات سقوف عالية لايمكن لهم تحصيلها من غير كدّ واجتهاد قاتليْن أحياناً . هذه الروح المتعطّشة للكفاح هي ممّا يفتقده كثير من أحفاد الكولونياليين السابقين . قد يلجأ هؤلاء الاحفاد لتوظيف تلك الأرواح بما يحقّق مصالحهم ؛ لكن إلى كم من الزمن ؟ لابدّ أن يأتي يوم يتساءل فيه التابعون : إذا كنتُ قادراً على إمتلاك كلّ الكعكة ؛ فلماذا أقبلُ بجزء يسير منها ؟ هذا هو بعضُ مايحصل في المشهد العالمي من إنزياحات ثقافية وعلمية وتقنية ومالية من العالم الكولونيالي القديم إلى الحواضر التي كانت تابعة في أزمان مضت .

*****

أظنُّ أنّ الهند هي المثال الافضل لبلد كان تحت السيطرة الكولونيالية ثمّ استطاع توظيف المتغيرات الراهنة لتحقيق تفوّق علمي وتقني وثقافي ؛ في حين لم تحقق معظم البلدان الافريقية شيئاً يقترب من معالم النهضة الهندية . ربما هي لعنة النفط أو الموارد الاولية التي تجعل الحكومات تعتاد العيش الطفيلي على الريوع الجاهزة .

لم توظّف كلّ بلدان التابع هذه الميزات المتاحة لصالحها ، ومنها معظمُ بلداننا العربية ( والعراق منها ) ؛ بل ثمّة ماهو أسوأ من عدم التوظيف وهو نشوء تيّار من الاصولية اللغوية التي تسعى لتحجيم تعلّم اللغات ( الكولونيالية ) في مقابل الترويـج للغات محلية . الكاتب الكيني **( نغوغي واثيونغو )** مثال على هذه الراديكالية اللغوية .

رؤية واثيونغو تتأسّسُ على أنّ الانكليزية – مثلاً وهي اللغة التي سادت كينيا إبان الاستعمار البريطاني – هي لغة ينبغي إستبدالها بلغة ( الغيكويو ) المحلية قراءة وكتابة . روّج واثيونغو لرؤيته في كتابه **( تصفية استعمار العقل[2] )** ، ثمّ دعمها بسلسلة من الكتب التي تتناول السياسات الثقافية ، وأهمها كتابه **( زحزحة المركز : الكفاح من أجل الحرية الثقافية[3] )** . مثلُ هذه الدعوات كفيلة بالاطاحة بكلّ المنجزات الممكنة والتي يمكن إنجازها في سنوات قادمة .

كلّ أساطين وقادة الفكر مابعد الكولونيالي كانوا متمرّسين باللغة الانكليزية وأفانينها وآدابها ( ومنهم واثيونغو بالطبع ) : درسوا في أرقى الجامعات العالمية وصاروا أساتذة فيها ؛ فلماذا يريد واثيونغو حجب حقوق نالها عن آخرين غيره ؟ لو تصوّرنا أنّ واثيونغو ظلّ

يحكي لغة الغيكويو في قريته ولم ينل تعليماً راقياً كذلك الذي ناله في جامعات النخبة الامريكية ؛ فمالذي كان سيفعله ؟ لاشيء تقريباً . يجب وضعُ اللغة في إطار براغماتي من غير زوائد آيديولوجية مؤذية وغير منتجة . تعلّمُ اللغات الاجنبية وسيلةٌ مؤكّدة ومتطلب ضروري لاغنى عنه لإختراق أسواق العمل الغربية وبدء نشاطات ثقافية أو إقتصادية فيها ؛ فكيف نقتل هذه الامكانيات الواعدة لصالح رؤية لغوية أحادية مسكونة بجلباب آيديولوجي هو بعضُ خطاب الخمسينات والستينات الآفلة من القرن العشرين ؟

## الهوامش

1 . العنوان باللغة الانكليزية : **Can The Subaltern Speak ?**

الكتاب مترجم إلى العربية .

2 . العنوان باللغة الانكليزية : **Decolonising the Mind: The Politics of Language in African Literature**

ترجمه الراحل ( سعدي يوسف ) إلى العربية .

**3 .** العنوان باللغة الانكليزية **: Moving the Centre: The Struggle for Cultural Freedoms**

( غير مترجم إلى العربية )

*** كاتب ومهندس من العراق**